رفعت سلام والبحث عن المصري المفقود

د. أحمد بلبولة (شاعر وأكاديمي مصري)

رحل رفعت سلام بعد أن أتم كتابه الذي أودعه خلاصة مشاهداته وتأملاته أثناء رحلته الشاقة في البحث عن الإنسان المصري المفقود، استعان في كتابته بالحرف والحفر والنقش مستخدما في ذلك القلم والفرشاة والإزميل، حتى إن صفحات دواوينه لتعاني زحاما صارخا من العلامات والرموز والأيقونات، إنها حالة من حالات الشعر الفتاكة التي تصل بالشاعر إلى الهذيان والحمى والمرض والجنون، وهو مع ذلك لا يقدم نموذجا سرياليا انسحابيا وإنما يقدم معنى (سواء اتفقنا أو اختلفنا في تأويله) إيجابيا محفزا ومحرضا لانتزاع حق الحياة، إنه لا يعود إلى التاريخ ليأخذ منه وقائعه بل يستمد وقائعه من الحياة الثقافية والفنية والسياسية والاجتماعية، كما أنه لا يتقحم المستقبل على طريقة المنجمين ومدعي الرؤى المستقبلية، إنها الجدارية الأرشيفية الحديثة لمعاناة الشخصية المصرية في أزماتها الراهنة وإن انعكست عليها مرايا التاريخ.

هذه هي قصيدة رفعت سلام الفريدة الموقع عليها باسمه في تاريخ الشعرية العربية؛ فالفكرة المركزية في مشروع رفعت سلام الشعري هي ضياع الهوية المصرية، وهي فكرة كانت سائدة في الوقت الذي بدأ فيه رفعت سلام مشروعه، سائدة في ديوان "بلوتولاند" للويس عوض، وفي كتابات سلامة موسى، وما تردد بعد ذلك في الأروقة الأكاديمية تأسيسيا على فكر أمين الخولي من ضرورة رصد أدب المصريين، الأمر الذي لقي تجاوبا من حسين نصار فكتب كتابا عن ذلك، والفكرة قديمة رفدتها دوائر الاهتزاز الثقافية لثورة ١٩١٩ واستجابات الكتاب والمفكرين كما أشار لذلك الدكتور أحمد هيكل في سيرته الذاتية أثناء تقييمه لكتاب "في الشعر الجاهلي" لطه حسين، إذ رصد من مظاهر تأثر المثقفين بهذه الثورة إلى جانب هذا

الكتاب كتاب "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق، و"الأدب المصري" لمحمد حسين هيكل.

ومع نضوج الوعي يقدم رفعت سلام نفسه، خاصة في دواوينه الأخيرة، مسكونا بأشباح هذه القضية ويعبر عنها بطريقة أقرب إلى الهلوسة أو الاعتراف السيكولوجي لدى المرضى النفسيين على حد تعبير محمد عبد المطلب الناقد الكبير، أو كما أسميها أنا جريا وراء دريدا حمى الأرشيف؛ فاللاوعي الحضاري يهذي والوعي الذاتي ينزف، وهما يعملان معا ويختلطان ببعضهما البعض: في ديوان "حجر يطفو على الماء" يقاوم رفعت سلام التطرف الديني بالأيقونات الفرعونية، يهذي وينزف حضاريا، ويرصع صفحات الديوان بهذه الأيقونات التعاويذ، وفي ديوان "أرعى الشياه على المياه" يتحدث عن ثورة يناير ويحاول الإجابة عن سر ضياعها وتبددها ويختلط الواقعي بغير الواقعي والتاريخي بالمعيش والمقدس بالأسطوري في درس فريد من دروسه الفنية الخالدة في كتابة المناسبة؛ وإجمالا فإن قانون عمل أرشيف رفعت سلام يعمل وفق مبادئ ثلاث هي: ذاكرة تستعيد لتتذكر وذاكرة تستعيد لتنسى، والحركة التدميرية في التعامل مع التراث، والمبدأ الأرخوني أو التخلص من سلطة الأب.

إن رفعت سلام فيما اختطه لنفسه من منحى رفضي فريد في تاريخ الشعرية العربية متأثرا في ذلك بلويس عوض وصلاح عبد الصبور يمثل بما قدمه قفزة خارج السياق حاولت ونجحت في تأسيس قصيدة جديدة بإيقاعها وطريقة كتابتها وعرضها، قصيدة كابوسية في خيالها شبيهة نوعا ما بكابوسية محمود حسن إسماعيل في ديوانه "موسيقى من السر"، قصيدة لم تتخل عن الجمال معيارا خالدا من معايير الشعر، قصيدة تقع على الحافة الأقرب إلى شعرية ما بعد الحداثة ساهمت في تطويرها خبرته الكبيرة بهذا الفن واستيعابه لما ترجمه لكبار الشعراء العالميين أصحاب التجارب الرائدة مثل شارل بودلير وولتويتمان وريتسوس وكفافيس وبوشكين

وغيرهم، ضاربا بذلك المثل في كيف يكون العمل الجاد، واضعا بسلوكه وممارسته شروط الاجتهاد، وموقعا ذاته كمثقف قدوة يرشد أمته زهدا ونبلا وترفعا حتى يستطيع أن يقول ما يريد وما يؤمن به بعيدا عن التوازنات وأخلاق المحاصصة.